

البعد الغيبي لعلاقة الإنسان بالبيئة في التصور الإسلامي وأثره في حمايتها من التدهور والفساد

The metaphysical dimension of man's relationship with the environment in the Islamic conception and its impact in protecting it from degradation and corruption

بن زيد فاطنة

كلية العلوم الإسلامية جامعة أحمد دراية أدرار (الجزائر)، benzidadrar@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2025/12/09 تاريخ القبول: 2025/03/25 تاريخ النشر: 2025/03/30

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز البعد الغيبي الذي اشتملت عليه نصوص وأحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بتفسير خلق الكون أو البيئة خاصة في جانب علاقة الإنسان بهذه البيئة، وأهمية هذا البعد وأثره في حماية البيئة من أسباب الفساد المختلفة من تدهور واستنزاف وتلوث وغيرها، للإجابة على السؤال: ما هي أهم ملامح البعد الغيبي في علاقة الإنسان بالبيئة في التصور الإسلامي، وما مدى أثره في حماية البيئة من الفساد والتدهور؟
كلمات مفتاحية: البعد الغيبي؛ البعد العقدي والإيماني؛ البعد الجمالي؛ حماية البيئة؛ التدهور.

Abstract:

This study aims to highlight the metaphysical and spiritual faith dimension included in the texts and rulings of Sharia law related to the relationship between man and the universe and the environment, and the importance of this dimension and its impact on protecting the environment from various causes of corruption, such as deterioration and the like, depletion and pollution.... To answer the question, what are the most important features of the metaphysical and spiritual faith dimension in the relationship between man and the environment in the Islamic conception, and to what extent does it impact the protection of the environment from corruption and deterioration?

Keywords: The unseen dimension; The doctrinal and faith dimension; The aesthetic dimension; Environmental protection; Deterioration.

مقدمة:

لقد جاء الإسلام لينظم جميع شؤون الإنسان ومنها علاقته بالكون أو البيئة من حوله، حيث بين المنهج الإسلامي حقيقة علاقة الإنسان بالبيئة ورسم حدود هذه العلاقة، بل وبين وظيفة كل عنصر من عناصر الكون أو البيئة وعلاقته بباقي العناصر الأخرى من إنسان وحيوان وتربة ومياه وغيرها.

والمتبع لنصوص الشريعة وأحكامها المتعلقة بالبيئة يجد أن هذه الأحكام تحمل في طياتها بعداً متميزاً في تفسير مفهوم البيئة أو الكون وعناصرها وعلاقة الإنسان بهذه البيئة، وهو البعد الغيبي، وهو جانب تميز به بل وانفرد به التشريع الإسلامي عن باقي التشريعات الوضعية سواء الدولية أو الداخلية.

ويشكل هذا البعد ملمحاً من ملامح التصور الإسلامي في رعاية البيئة ومعالجة مشاكلها. ونحاول في هذا العرض الوقوف على أبرز القواعد والمبادئ القيمة التي تمثل البعد الغيبي في علاقة الإنسان بالبيئة أو الكون في نصوص الشريعة الإسلامية وأحكامها، وأثره في حماية البيئة من التدهور والفساد.

إشكالية البحث

لقد كانت الشريعة الإسلامية سباقة في إرساء العديد من المبادئ والقيم السامية في مجال حماية البيئة والمحافظة عليها من الفساد والتدهور، ومن أهم ما تميزت به ذلك البعد الغيبي الذي حملته في نصوصها وأحكامها في تفسير العديد من العلاقات والظواهر البيئية، وانطلاقاً من ذلك جاءت هذه الدراسة للبحث في سؤال رئيس: ما هي أهم ملامح البعد الغيبي في أحكام ونصوص الشريعة بالبيئة وخاصة في جانب علاقة الإنسان بالبيئة، وما مدى أثر معرفة هذا البعد في حماية البيئة من الفساد والتدهور؟

ولقد عملت في هذه الدراسة على تتبع نصوص الشريعة المتعلقة بالبيئة، خاصة تلك المتعلقة ببيان وتفسير علاقة الإنسان بالكون أو البيئة، ودراسة البعد الغيبي فيها وبيان أثره في حماية البيئة من التدهور والفساد.

ومن هنا جاءت الدراسة مبينة أولاً: مفهوم البعد الغيبي وبيان أقسامه، ثم في الجزء الثاني من الدراسة التركيز على كل قسم للبعد الغيبي وبيان مضمونه وأثره في حماية البيئة من التدهور والفساد

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف:

- الإطلاع على ما تزخر به الشريعة الإسلامية من منظومة قِيَمِيَّة سامية في موضوع البيئة، وتفسير كيفية خلق الكون وما فيه من عناصر ومكونات، وطبيعة علاقة الإنسان بهذا الكون والبيئة ودوره الحقيقي فيه.
- المساهمة في زيادة الوازع الإيماني والعقدي لدى الفرد المسلم بإدراك الكثير من المعاني الإيمانية الموجودة في نصوص وأحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بحقائق الكون وما فيه من كائنات ومخلوقات، بهذا النظام الدقيق المترابط والمتكامل والمنسجم.
- المساهمة في رفع الحسن البيئي لدى الإنسان، بإدراك البعد الغيبي للكون والبيئة والوقوف على بعض المعاني والمقاصد من وراء خلق الكثير من الكائنات والعناصر في الكون والبيئة وعلاقتها بالإنسان، والمساهمة بذلك في نشر الوعي البيئي بأهمية وضرورة المحافظة على البيئة وحمايتها، وواجب الإنسان في ذلك، خاصة في ظل ما تعانيه البيئة اليوم من أشكال التلوث والتدهور والفساد غير المسبوق.

1- في مفهوم البعد الغيبي

إن التصور الإسلامي لحقيقة الكون والبيئة وعلاقة الإنسان بها، يتناول جانبين هما: البعد المادي فيها، والبعد الغيبي.

فالبعد المادي للبيئة يقصد به التكوين المادي لعناصر البيئة.

أما البعد الغيبي فيقصد به ما يقابل الجانب المادي للبيئة، وهو تلك المعاني المجردة غير المادية التي تتعدى العناصر والمكونات المادية للبيئة، وإنما هي معان لا يدركها الإنسان بحواسه أو وسائله الحسية بل بإدراكه الروحي النفسي، فهي غير مدركة حسياً بل هي جوانب غيبية. (ياسين، البيئة من منظور إسلامي، 2008، صفحة 273)

وفي هذا البحث نحاول الوقوف على تلك الجوانب الغيبية في علاقة الإنسان بالكون أو البيئة وأثر معرفتها في حماية البيئة من التدهور، ويمكن تصنيف تلك الجوانب هي الأخرى إلى قسمين:

*البعد العقدي والإيماني

*البعد الجمالي

2- البعد العقدي والإيماني في علاقة الإنسان بالبيئة

ويتجلى هذا البعد في الجوانب التالية:

أ- الإنسان والبيئة: وحدة الخلق والأصل والتكوين

يقوم التصور الإسلامي للكون على أنه وحدة واحدة في ترابط وتكامل وانسجام، وأول صور هذه الوحدة هو وحدة الخلق، فالإنسان والكون كله خلق من مخلوقات الله، قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمر: 62]، فالإنسان والبيئة والكون كله طرف واحد مخلوق كالإخوة ينتمون إلى نفس السبب الموجد فهم مخلوقين مدبر لهم أمام خالق مُدَبِّرٍ.

كما ربط الإسلام بين الإنسان وبيئته وخاصة الأرض، ومن أبرز مظاهر هذا الربط وحدة الأصل والنشأة، فالله هو المنشئ للكون والوجود البيئي كله، وأصل الكون كله واحد ثم في مرحلة معينة أنشأ الله الإنسان من الأرض قال تعالى: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: 61]،

أي أن أصل الإنسان من الأرض وتكوينه المادي من ترابها واحتوى جسمه على معظم عناصرها. قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} [الروم: 20] (ياسين، 2008، صفحة 51).

وهذا الربط بين الإنسان والأرض بيئته الكبرى في الخلق والأصل والنشأة والتكوين، ينشأ علاقة من الألفة والمودة بين الطرفين فالإنسان ينتسب إلى هذا الكون وهذه الأرض فحري به أن يراعى هذا النسب بالبر والرفق.

ولم يوحد الإسلام بين الأرض والإنسان فقط بل وحد بين أصل كافة أحياء الأرض قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء:30]، فالإنسان جزء من هذه البيئة ذات الأصل. وهذه الحقيقة والوحدة يجب أن تنعكس بشكل إيجابي مثمر على علاقة الإنسان بالبيئة بالحفاظ عليها من الفساد والتدهور بل وزيادة إعمارها.

ب- الإنسان والبيئة: وحدة الوظيفة والغاية والمصير

لقد بين القرآن الكريم في الكثير من نصوصه أن الكون أو البيئة بكل مخلوقاته مخلوق لعبادة الله والكل مستسلم منقاد له، فهي جميعها تشترك في وظيفة العبادة والانقياد لله. فالكون كله بجميع مخلوقاته منقاد لله و يسير وفق نوااميس وسنن محددة، وهو في تسبيح وصلاة وسجود دائم لله، قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء:44]، وقال سبحانه: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَاتَةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [النحل:49]، وقال تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [الرعد:15]، وقال سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [النور:41] (ياسين، البيئة من منظور إسلامي، 2008، صفحة 54)، فكل عناصر البيئة طائعة عابدة مسبحة ساجدة.

كما أن هناك وحدة في المصير، فالكون والبشر والكل عائد إلى الله راجع إليه قال تعالى: {أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى: 53] وقال سبحانه: {إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ} [العلق:8] إن هذه الصورة البديعة من تصوير وظيفة الكون ومخلوقاته (صورة البيئة العابدة المسبحة الساجدة لله)، إذا علمها الإنسان واستوعبها حقاً، فلا شك أنه سيقف أمامها بإجلال واحترام وإكبار وسيقدر هذه الوظيفة ولن يجزؤ على المساس بهذه البيئة أو العبث بها، بل سيعين هذه المخلوقات على أداء تلك الوظيفة فهي وظيفة مشتركة بينهما.

بالرغم مما رأينا من اشتراك الإنسان مع الكون ومع بيئته في العديد من الجوانب، إلا أن الله كرم الإنسان على سائر المخلوقات في جوانب أخرى قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: 70] فالإنسان مخلوق مكرم مفضل على باقي المخلوقات.

وقد استحق الإنسان ذلك التكریم والتفضیل والسيادة بسبب وظيفته التي كلفه الله بها وهي الخلافة في الأرض وعمارتها وهي من العبادة التي خلق لأجلها، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة:30] وقال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود:61]

وخلافة الله في الأرض تتم بتطبيق منهج الله وإقامة الحق والعدل ونشر الخير والصالح، وعمارة الأرض تتم بالغرس والزرع والبناء والإصلاح والبعد عن الإفساد والإخلال (مزيد، 2008، صفحة 127)

وحتى يتمكن الإنسان من القيام بوظيفته وواجبه في الاستخلاف وعمارة الأرض، جعل الله له البيئة بكل مكوناتها مسخرة مذلة له قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الجاثية:13].

إلا أن قوامة الإنسان على الأرض والبيئة وإستخلافه فيها، لا تعني ملكيته لها، وإنما تعني النيابة والتفويض عن الله في حكم الأرض بشرط الالتزام بمنهج المفوض وهو الله عز وجل.

كما إن قوامة الإنسان على البيئة وسيادته للأرض لا تعني التسلط والقهر والحرية اللامسؤولة في التصرف أو المساس بقوانين البيئة والعبث بخيراتها ومكوناتها ، بل تعني الأمانة والمسؤولية في الاستخلاف والعمارة، كما أن الإنسان غير مخول بالتصرف في البيئة وفق هواه وبعيداً عن منهج الله الذي وضعه له بل عليه مراعاة شروط الوكالة والخلافة. (ياسين، البيئة من منظور إسلامي، 2008، صفحة 66)

وعليه فإن التصور الإسلامي لخلافة الإنسان على الكون أو البيئة، يقوم على ثنائية التسخير والاستخلاف، وهي أن البيئة بكل مكوناتها مسخرة للإنسان ليقوم بوظيفة الاستخلاف في الأرض، لتطبيق منهج الله وإقامة الحق والعدل ونشر الخير، وعمارة الأرض بالغرس والبناء والإصلاح، وهو مسؤول ومحاسب على هذا الاستخلاف والاستعمار.

ج-علاقة الإنسان بالبيئة: مراعاة التوازن والاعتدال والوسطية.

لقد بينت نصوص الشريعة وأحكامها أن هذا الكون أو البيئة الطبيعية قائمة على التوازن بين عناصرها المختلفة، ولهذا التوازن الدقيق دلالة واضحة على عظمة الخالق وقدرته (حجاب، 1999، صفحة 26) قال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر:49] وقال سبحانه: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان:02] وقال تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ} [الحجر:19] وقال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ} [الملك:03] .

فالتوازن البيئي سمة من أهم السمات التي تميز البيئة الطبيعية لأن كل شيء خلقه الله بقدر ولكل شيء عمل ووظيفة لتحقيق الغاية من الحياة. (مراد، 2003، صفحة 92) وهذا الكون يقوم على نظام بيئي متكامل تتفاعل فيه كل مكوناته وعناصره الحية وغير الحية من إنسان وحيوان ونبات وماء وجبال وغيرها.

وأي مساس بهذا النظام المتوازن والمتكامل سيؤدي إلى فساد وتدهور مكونات البيئة مما سيعود بالضرر على حياة الإنسان وحياة الكائنات الأخرى. وأهم ما يميز المنهج الإسلامي في الحفاظ على البيئة هو الأمر بالتوسط والاعتدال في كل تصرفات الإنسان، ولقد أقام الإسلام بناءه كله على الوسطية والتوازن والاعتدال في جميع أحكامه (من عبادات ومعاملات وغيرها...) حتى غدا ذلك شعار الإسلام وسميت هذه الأمة بأمة الوسط قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة:143]

وقد دعت الكثير من نصوص الشريعة إلى الاعتدال في استعمال موارد البيئة والنهي عن الإسراف قال تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف:31] وقال سبحانه: {وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأنعام:141]، ولقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسراف في الماء ولو كان في الوضوء ولو كان الإنسان على نهر جار.¹

¹ حديث عبد الله بن عمرو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِسَعْدٍ، وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: "مَا هَذَا السَّرَفُ؟" فَقَالَ: أَيْ الْوُضُوءَ إِسْرَافٌ؟ قَالَ: "نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ". رواه ابن ماجه، أَبْوَابُ الطَّهَارَةِ وَسُنَنِهَا، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْقَصْرِ فِي الْوُضُوءِ وَكَرَاهِيَةِ التَّعَدِّي فِيهِ، ج 1، ص 147.

ولقد أجمعت الدراسات المتعلقة بمشكلات البيئة على وجود علاقة وثيقة بين إسراف الإنسان في تعامله مع مكونات البيئة المختلفة، واعتباره من أهم عوامل الخلل والاضطراب في منظومة التوازن البيئي مما أدى إلى مشكلات بيئية كثيرة لا تقتصر على الإنسان وحده بل تمتد إلى باقي الكائنات والأحياء. (مراد، 2003، صفحة 88)، وهي الحقيقة التي قررها الإسلام قبل ذلك في العديد من النصوص قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ...} [الروم: 41] (زيدان، 2004، صفحة 23)

والوسطية هي خير ضمان لحماية التوازن البيئي، فلا شك أن خير وسيلة لإنقاذ البشرية والبيئة من الإسراف واستنزاف مواردها هو العودة إلى المنهج الإسلامي في الوسطية والاعتدال.

د- الإنسان والبيئة: علاقة شعور وإحساس ووجدان.

ومن أجل ما جاء به الإسلام في علاقة الإنسان بالبيئة وبالكون، إنشاء رابطة وجدانية من الحب والرأفة والرحمة والاحترام بين الإنسان والبيئة المحيطة به من كائنات حية أو جامدة، وأن هذه البيئة كيان حي يتفاعل وله مشاعر وأحاسيس.

فقد صور الإسلام مثلاً علاقة الإنسان بالأرض أو البيئة على أنها علاقة أمومة، فصور الأرض كأنها أمنا فمنها خلقتنا؛ وعلى ظهرها نحيا؛ ونطعمنا وتسقيننا من خيراتها؛ وعند موتنا تصفنا وتسئنا في بطنها حتى يأذن الله بالبعث والحساب قال تعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه: 55] وأي علاقة أكبر من الأمومة، فهذه الأرض أم ودود معطاءة. وهذه العلاقة لا شك يجب أن تقابل بالبر والرفق والرحمة وليس بالنكران والفساد. (ياسين، البيئة من منظور إسلامي، 2008، صفحة 187)

وكصورة أخرى للوحدة والتشابه والتوافق بين الإنسان وباقي الكائنات الحية من الدواب والطيور، بين القرآن أنها أم أمثالنا - وإن كان لكل أمة خصائصها- قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: 38].

فالإسلام ينظر إلى البيئة أنها كائنات لها مشاعر وأحاسيس فهي تحب وتكره وترضى وتغضب وتدعوا وتلعن وتبكي وتضحك. (ياسين، البيئة من منظور إسلامي، 2008، صفحة 57)

ومن أمثلة هذه المشاعر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن جبل أُحُد : «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»¹، بل لقد ذهب الإسلام إلى أبعد من إقرار وجود الأحاسيس والمشاعر التي تتبادلها البيئة مع الإنسان، إلى نوع المشاعر والأحاسيس وبأنها تختلف بحسب نوع سلوك الإنسان مع البيئة إيجاباً وسلباً ، فالإنسان المؤمن الإيجابي المحافظ على بيئته المؤدي لدوره يسير مع هذا الكون في انسجام وانتظام فتجبه البيئة والكون بكل مكوناته- ويفرح له، والأمثلة والشواهد كثيرة منها: قول النبي صلى الله عليه وسلم " «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى الثَّمَلَةِ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحَوْتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»²، أما الإنسان ذو السلوك السلبي المفسد المؤذي الظالم لنفسه ومجتمعه وبيئته، فهذا لا يحبه الكون ولا ينسجم معه قال النبي صلى الله عليه وسلم: « وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالِدَوَابُّ. »³

كما أن البيئة وعناصرها تحب العبد المؤمن وتدعوا له وتبكي عليه وعكسه العبد الكافر فلا تحبه ولا تبكي عليه قال تعالى: { فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ... } [الدخان:29]، "يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا عَلَى الْأَرْضِ عَمَلًا صَالِحًا تَبْكِي عَلَيْهِمْ لِأَجْلِهِ، وَلَا صَعَدَ لَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ عَمَلٌ صَالِحٌ فَتَبْكِي فَقَدْ ذَلِكُ...، وقال الخُزَّيْنِيُّ: مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً فِي بُقْعَةٍ مِنَ بَقَاعِ الْأَرْضِ إِلَّا شَهِدَتْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَكَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ بَمُوتِهِ. " (القرطبي، 1964، الصفحات 140-141)

3-البعد الجمالي في علاقة الإنسان بالبيئة

-البيئة زينة وجمال ونعمة للإنسان (القيمة الجمالية)

إن التصور الإسلامي للبيئة لا يقف فقط عند البعد أو الجانب المادي فيها، وإنما يتضمن بعداً آخر تميز به الإسلام عن باقي الروى والمعتقدات والأنظمة والتشريعات الأخرى، وهو البعد الجمالي، فقد حرص القرآن الكريم على أن يبرز العنصر الجمالي في البيئة، فمشاهد البيئة في القرآن تتضمن قيمة جمالية، ومن أمثلة ذلك ما ذكره القرآن عن تنوع ثمرات الأشجار وكذلك الجبال وأصناف الناس في اللون والشكل، وأنواع الأنعام ومختلف مكونات البيئة من نبات وجماد

¹ رواه البخاري، كِتَابُ الْمَغَازِي، بَابُ أُحُدٍ يُحِبُّنَا، ج5، ص103.

² رواه الترمذي، أُنْوَابُ الْعِلْمِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْفَقِيهِ عَلَى الْعِبَادَةِ، ج5، ص50.

³ رواه البخاري، كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ، ج8، ص107

وحیوان وما یظهر فیها من الألوان الزاهية والمتنوعة قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ } [فاطر: 27]، وما ذكره من جمال الأنعام في ذهابها وإيابها إلى مسارج الرعي قال تعالى: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ} [النحل: 06]، فقد هُيئت هذه الأنعام بصفة جمالية من أجل الإنسان ليكون له فيها متاع روحي.

وكذلك الحال في الدواب قال تعالى: {وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 08] فهذه الدواب خلقت للمنفعة المادية متمثلة في الركوب وحمل الأثقال وأيضاً لمنفعة روحية وهي الركوب للمتعة والزينة.

وقال تعالى عن صناعة السماء صناعة جمالية: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} [الحجر: 16].

والحدائق المتنوعة الأصناف من الأشجار والثمار والمياه الجارية ذات شكل جمالي يضيف عليها طابع الجمال والبهجة قال تعالى: {...وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} [النمل: 60]. (السرياني، 2006، صفحة 275)

وهكذا يظهر الجمال في البيئة أينما توجه الإنسان بِنَظَرِهِ، فالجمال سمة بارزة من سمات هذا الوجود. والإنسان مفطور على حاسة جمالية تحتاج إلى الإشباع عن طريق التعرض لمشاهد الجمال الماثلة في الكون والبيئة، والقيمة الجمالية دورها أن تغذي الروح بمتعة معنوية تسمو بها إلى آفاق عليا من الإنسانية.

وتلك الأمثلة هي دعوة قرآنية إلى تأمل الجمال الكوني، وهي دعوة إلى الارتفاع بعلاقات الإنسان بالكون والبيئة إلى مستويات عليا من السلوك والرؤية الإنسانية النبيلة في مستويات الإصلاح والإعمار لا تقتصر فقط على الإصلاح المادي بل تتعداه إلى الجمال المعنوي البادي في الكون والذي يجب أن يسعى الإنسان إلى تأمله والمساعدة على الاحتفاظ به وصيانه. (مراد، 2003، صفحة 98).

إن التصوير القرآني للجمال في مختلف عناصر البيئة، ينقل الإنسان من المنفعة المادية إلى المنفعة الجمالية، بل إلى المنفعة الإيمانية العقدية ومثاله: قول الله تعالى {...وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً



فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ { [النمل: 60] فالجمال في الحدائق صورة جمالية داعية إلى قيمة إيمانية عقدية وهي وجود الله وضرورة الإيمان به، وهذا لا شك توجيه للأثر الجمالي إلى العبرة العقدية والسمو بالإنسان إلى ما هو أعلى، مما ينعكس إيجاباً على سلوك الإنسان تجاه البيئة. (السرياني، 2006، صفحة 276)

ولما كان الجمال مقصوداً قصداً في خلق الكون وكان البعد الجمالي ضرورياً في علاقة الإنسان بالبيئة، فإن ما يحدث في عصرنا اليوم من أشكال الفساد والتدهور البيئي المختلفة، يجب النظر إليه على أنه اعتداء صارخ أثيم على توازن البيئة المحكم، وتشويه متعمد لشكلها الجمالي الذي جعلها الله عليه، ومن ثم يكون العمل على حماية البيئة من مختلف أشكال الفساد والتدهور والتلوث البيئي، والإبقاء والحفاظ على الجمال في صفحات الكون مطلباً إسلامياً وإنسانياً يجب أن تشحذ فيه الهمم وتبذل فيه أعظم الجهود. (مراد، 2003، صفحة 99)

خاتمة:

لقد بين الإسلام حقيقة الكون أو البيئة وعناصره ومكوناته، في جانبها المادي وكذلك الغيبي الروحي، وبيّن بشكل خاص البعد الغيبي: العقدي والإيماني وكذا الجمالي لعلاقة الإنسان بالبيئة، وأنها تقوم على التوافق والتكامل والانسجام وليس المغالبة والصراع، فهي تقوم على الاشتراك والتوافق في العديد من الجوانب كالاشتراك في أصل النشأة والتكوين وفي الغاية والمصير وكذلك في وحده الشعور والوجدان، وأن هذا الكون مبني على التوازن، ولكل من الإنسان والبيئة بكافة عناصرها، دوره ووظيفته وأي طغيان أو تعدي في هذه العلاقة سيؤدي إلى فساد وتدمير هذه البيئة.

ودور الإنسان ووظيفته بالنسبة للبيئة هو أنه مستخلف في هذه الأرض لإقامة منهج الله وعمارة الأرض بالخير والبناء والإصلاح والحفاظة عليها من الفساد، وهو مسؤول ومحاسب على ذلك، وعليه أن يتعامل مع البيئة وفق الضوابط والقواعد التي حددها الله لا وفق هواه.

-إن سلوك وتصرفات الإنسان تجاه البيئة هو نتاج أو فرع عن معتقداته وتصوراته ونظراته لهذه البيئة، فإذا كان التصور والمعتقد خاطئاً فلا شك أن السلوك والنتائج ستكون خاطئة.

- إن إدراك البعد الغيبي لعلاقة الإنسان بالكون والبيئة وفهمه واستحضاره، ومن ذلك أن لهذه البيئة وعناصرها وظيفة وغاية كما أن لها إحساس وشعور، لا شك أن له تأثير إيجابي على نظرة الإنسان وسلوكه تجاه الكون والبيئة.
- إن البعد الغيبي والإيماني الذي حملته نصوص وأحكام الشريعة في تفسير حقيقة الكون والبيئة وعلاقتها بالإنسان، يقدم رؤية متوازنة ومتكاملة و منسجمة للكون والإنسان، تجعل المسلم يقف على أرضية صلبة -من القواعد والأحكام- يستند إليها، وتوفر له الكثير من السلام والانسجام النفسي والروحي.
- إن ما تواجهه البشرية اليوم من مشكلات وكوارث بيئية مختلفة (فساد، تدهور، تلوث، إنقراض كائنات...)، يدل يقيناً على ضعف وغياب كبير للوعي والحس البيئي وجهل بالبعد الغيبي والإيماني الذي يحكم علاقة الإنسان بالبيئة، وطغيان النظرة المادية النفعية للإنسان على حساب مصلحة البيئة والحياة على هذا الكوكب.

قائمة المصادر والمراجع:

- الكتب:

1. ابن ماجه. سنن ابن ماجه. دار إحياء الكتب العربية.
2. الترمذي. سنن الترمذي. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
3. القرطبي. (1964). الجامع لأحكام القرآن. القاهرة: دار الكتب المصرية.
4. بركات محمد مراد. (2003). الإسلام والبيئة. القاهرة-مصر: دار القاهرة.
5. رفعت محمد مزيد. (2008). التربية البيئية في ضوء السنة النبوية. دار العلم والإيمان.
6. زكي حسين زيدان. (2004). الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان وكيف علاجها الإسلام. الاسكندرية: دار الفكر الجامعي.
7. عبد الله المنزلاوي ياسين. (2008). البيئة من منظور إسلامي. عمان: كنوز المعرفة.
8. محمد بن اسماعيل البخاري. صحيح البخاري. الطبعة السلطانية، دار طوق النجاة.



9. محمد محمود السرياني. (2006). المنظور الإسلامي لقضايا البيئة. الرياض: مركز

الدراسات والبحوث جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية.

10. محمد منير حجاب. (1999). التلوث وحماية البيئة قضايا البيئة من منظور اسلامي.

مصر: دار الفجر للنشر.